تفسير

سورة الليل[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

١. ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ . قال ابن عباس[٢] ، ومقاتل[٣] : «أقسم الله بالليل إذا يغشى بظلمته[٤] والنهار ، ولم يذكر مفعول يغشى للعلم به» .

وقال أبو إسحاق : «يغشى الليل الأفق ، وجميع ما بين السماء والأرض ، فيذهب ضوء النهار»[٥] .

٢. قوله تعالى[٦] : ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ؛ (أي بان وظهر)[٧] من بين الظلمة .

---

(١) مكية بقول جمهور المفسرين ، قال بذلك ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٠ ، وحكى الإجماع ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢٦١ ، وقال السيوطي في الإتقان ١/ ٣٥ : الأشهر أنها مكية ، وقيل : إنها مدنية . انظر : تفسير عبدالرزاق ٢/ ٣٧٧ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٠ .

(٢) ورد معنى قوله في زاد المسير ٨/ ٢٦١ .

(٣) الوسيط ٤/ ١٠٥ .

(٤) في (أ) : (والنهار) .

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٥ بتصرف .

(٦) (قوله تعالى) ساقط من (أ) .

(٧) ما بين القوسين نقلاً عن معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٥ .

قال قتادة : «هما آيتان عظيمتان يكررهما الله على الخلائق»[١] .

٣. (قوله)[٢] : ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ . قال الكلبي : «والذي خلق»[٣] ، وهو قول الحسن[٤] . و(ما) على هذا بمعنى (مَنْ) .

وقال مقاتل : «يعني : وخلْق الذكر والأنثى»[٥] .

وعلى هذا ، (ما) للمصدر ، وقد فسَّرنا هذا في مواضع[٦] . والذكر والأنثى يجوز أن يعني بهما الجنس من الذكر والأنثى[٧] ، وهو الظاهر[٨] .

وقال مقاتل[٩] ، (والكلبي[١٠])[١١] : «يعني آدم وحواء» .

---

(١) ورد نحوه في جامع البيان ٣٠/ ٢١٧ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من (ع) .

(٣) فتح القدير ٥/ ٤٥٢ .

(٤) المرجع السابق ، وانظر : جامع البيان ٣٠/ ٢١٨ ، والكشف والبيان ١٣/ ١٠٢أ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٨٦ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٠ ٨١ ، والدر المنثور ٨/ ٥٣٤ منسوباً إلى ابن أبي حاتم ، وانظر أيضاً : تفسير الحسن البصري ٢/ ٤٢٥ .

(٥) فتح القدير ٥/ ٤٥٢ .

(٦) يراجع في ذلك قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس :٥-٧] ، وهو مذهب الزَّجَّاج في معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٢ ، وانظر : معاني الحروف للزجاجي ٥٥ .

(٧) في (ع) : (الذكور والإناث) .

(٨) القول بالعموم من كل ذكر وأنثى قال به الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨٧ ، وأبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٤٨٣ ، والشوكاني في فتح القدير ٥/ ٤٥٢ .

(٩) معالم التنزيل ٤/ ٤٩٤ ، وزاد المسير ٨/ ٢٦٢ ، وفتح القدير ٥/ ٤٥٢ .

(١٠) المراجع السابقة ، وانظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٢ ، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٣ ، وفتح القدير ٥/ ٤٥٢ ، وبه قال الحسن ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٠ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٢ .

(١١) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

وجواب القسم قوله تعالى :

٤. ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ .

قال ابن عباس : «إن أعمالكم لمختلفة ، عمل للجنة ، وعمل للنار»[(١)] .

وقال مقاتل : «يعني أن أهل مكة تقول : إن أعمالكم لمختلفة في الخير والشر»[(٢)] .

وتفسير (شتّى) قد سبق في قوله : ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه :٥٣][(٣)] .

قال المفسرون : «نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي أبي سفيان»[(٤)] .

ثم فصَّل عملهما فبيَّن[(٥)] فقال :

٥. (قوله)[(٦)] : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ .

---

(١) ورد في زاد المسير ٨/ ٢٦٢ ، وإلى هذا ذهب قتادة في جامع البيان ٣٠/ ٢١٩ .

(٢) لم أعثر على مصدر لقوله .

(٣) مما جاء في تفسير قوله : (شتى) : مختلف متفرق ، ولا واحد له من لفظه مثل فوض .

(٤) قال بذلك ابن عباس كما في الدر المنثور ٨/ ٥٣٦ منسوباً إلى عبد بن حميد ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، وقاله ابن مسعود كما في بحر العلوم ٣/ ٤٨٤ ، وزاد المسير ٨/ ٢٦٢ ، والدر المنثور ٨/ ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، وعبدالله بن أبي أوفى ، وساقه ابن عطية عنه في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩١ ، ونسبه القرطبي إلى المفسرين في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٢ ، والشوكاني في فتح القدير ٥/ ٤٥٢ . ووردت الرواية في أسباب النزول للواحدي ٣٨٥ ، وقال بها أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان ١٣/ ١٠٣أ ، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨٧ ، وانظر : معالم التنزيل ٤/ ٤٩٥ . وقول آخر : إنها نزلت في أبي بكر وأمية بن خلف . انظر : معاني القرآن للفرَّاء ٣/ ٢٧٠ ، ولباب التأويل ٤/ ٣٨٤ .

(٥) في (ع) : (وبين) .

(٦) ما بين القوسين ساقط من (ع) .

قال الكلبي : «تصدق من ماله ، واتقى معصية ربه»[١] .

وقال مقاتل : «أعطى المـــال في حق الله ، واتقى الله (ومعصيته[٢])[٣] ، يعني الصديق رضي الله عنه» .

٦. ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ .

قال عكرمة عن ابن عباس : «بالخَلَف»[٤] ، وهو قول الكلبي[٥] ، ومقاتل[٦] ، وقتادة[٧] ، (قالوا : يعيده)[٨] الله ، وهو أن يخلفه في الآخرة الجنة .

(فالحسنى) على هذا القول : الجنة ، يجعلها الله خلفاً لأبي بكر مما أعطى .

---

(١) لم أعثر على مصدر لقوله .

(٢) لم أعثر على مصدر لقوله .

(٣) ما بين القوسين ساقط من (ع) .

(٤) ورد في تفســير الإمــام مجاهد ٧٣٤ ، وجامع البيــان ٣٠/ ٢١٩ ، ورجَّحه الطــبري في معالم التنزيل ٤/ ٤٩٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩١ ، وزاد المســير ٨/ ٢٦٣ ، والجامع لأحــكام القرآن ٢٠/ ٨٣ ، ولباب التأويل ٤/ ٣٨٣ ، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٣ من غير ذكر طريق عكرمة ، وكذا في تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٣ ، والدر المنثور ٨/ ٥٣٥ منســوباً إلى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٤٢٢ ح ١٠٨٢٥ .

(٥) ورد معنى قوله في الكشف والبيان ١٣/ ١٠٢أ ، ومعالم التنزيل ٤/ ٤٩٥ .

(٦) ورد معنى قوله في المرجعين السابقين ، وانظر : زاد المسير ٨/ ٢٦٣ .

(٧) ورد معنى قوله في المراجع الســابقة ، وانظر : تفســير عبدالرزاق ٢/ ٣٧٧ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٣ ، وفتح القدير ٥/ ٤٥٢ .

(٨) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

وقال مجاهد[١] ، وأبو عبدالرحمن (السلمي[٢])[٣] ، والضحاك[٤] ، قال : «لا إله إلَّا الله» .

وقال عطاء عن ابن عباس : «يريد الخلف من الله والثواب والجنة ، وصدَّق بأن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله»[٥] .

٧. (قوله تعالى)[٦] : ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ؛ فسنهيئه لعمل الخير ، وهو معنى قول ابن عباس : «نيسر له أعمال الخير»[٧] .

وقال الكلبي ، و(مقاتل[٨])[٩] ، والفرَّاء[١٠] : «نيسره للعودة للعمل الصالح» .

---

(١) لم أعثر على مصدر لقوله .

(٢) ورد في جامع البيان ٣٠/ ٢١٠ ، والكشف والبيان ١٣/ ١٠٢ب ، ومعالم التنزيل ٤/ ٤٩٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩١ ، وزاد المسير ٨/ ٢٦٣ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٣ ، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٣ ، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٣ ، والدر المنثور ٨/ ٥٣٥ منسوباً إلى الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وانظر : فتح القدير ٥/ ٤٥٢ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٤) جامع البيان ٣٠/ ٢١٠ ، والكشف والبيان ١٣/ ١٠٢ب ، والنكت والعيون ٦/ ٢٨٧ ، ومعالم التنزيل ٤/ ٤٩٥ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٣ ، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٣ ، وفتح القدير ٥/ ٤٥٢ .

(٥) لم أعثر على مصدر لقوله .

(٦) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٧) ورد بمعناه في النكت والعيون ٦/ ٢٨٨ ، وزاد المسير ٨/ ٢٦٣ ، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٤ ، وشعب الإيمان ٧/ ٤٢٢ ح ١٠٨٢٥ .

(٨) لم أعثر على مصدر لقولهما .

(٩) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(١٠) معاني القرآن ٣١/ ٢٧٠ بنصه .

ومعنى اليسرى : الخلة اليسرى[١] ، (وهي الأمر السهل الذي لا يقدر عليه أحد إلَّا المؤمنون)[٢] ، يسَّر الله لهم العمل بمرضاته ، فتيسَّر عليهم الإنفاق في سبيل الخير ، والعمل بالطاعة بتيسير الله ذلك لهم[٣] .

قال المفسرون : «نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق رضي الله عنه[٤] ، اشترى منه ستة نفر من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم في الله»[٥] .

٨. ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ ؛ أي بالنفقة في الخير والصدقة[٦] .

﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن ثواب الله فلم يرغب فيه[٧] .

قال مقاتل[٨] ، والكلبي[٩] : «يعني أبا سفيان ، ثم عمَّت الكفار بعده» .

---

(١) في (أ) : (الخل اليسرا) .

(٢) ما بين القوسين من قول الزَّجَّاج في معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٥ .

(٣) بمعنى هذا القول ذهب الطبري في جامع البيان ٣٠/ ٢١١ ، والثعلبي في الكشف والبيان ١٣/ ١٠٣أ ، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨٨ .

(٤) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٥) ورد معنى هذه الآية من طريق عامر بن عبدالله بن الزبير ، عن بعض أهله عند الطبري في جامع البيان ٣٠/ ٢١١ ، وكذلك في الدر المنثور ٨/ ٥٣٥ ، ٥٣٦ منسوباً إلى ابن عساكر . انظر : أسباب النزول ٣٩١ ، تحقيق أيمن صالح ، قال عنه : «صحيح صحَّحه الحاكم» ، وقال عصام الحميدان : «وإسناده حسن بشواهده» . انظر : أسباب النزول ٤٥٦ . وقد صرَّح ابن إسحاق بالتحديث عند الحاكم . انظر شواهده في : لباب النقول ٢٣٠ ، وفتح القدير ٥/ ٤٥٤ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب التفسير (سورة الليل) ٢/ ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، وقال : «صحيح» ، وسكت عنه الذهبي .

(٦) بمعناه قال ابن عباس ، وقتادة . انظر : جامع البيان ٣٠/ ٢٢١ ، ٢٢٢ ، وبه قال السمرقندي في بحر العلوم ٣/ ٤٨٥ ، والثعلبي في الكشف والبيان ١٣/ ١٠٣أ ، ونسبه ابن الجوزي إلى المفسرين في زاد المسير ٨/ ٢٦٤ .

(٧) قال بنحوه الثعلبي في الكشف والبيان ١٣/ ١٠٣أ .

(٨) ورد بمعناه في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩١ .

(٩) لم أعثر على مصدر لقوله .

وقال عطاء : «يريد أمية بن خلف»[١] .

٩. ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يعني بما صدق (به)[٢] أبو بكر ، وقد فسَّرنا[٣] .

١٠. ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ . قال عطاء : «يريد سوف أحول بينه وبين أن يؤمن بالله ويصدِّق رسوله»[٤] . وهذا على (قول)[٥] مَن يقول : إنه أمية بن خلف .

وقال مقاتل : «يعسر عليه أن يعطي خيراً»[٦] .

وقال عكرمة عن ابن عباس : «للعسرى[٧] : للشر»[٨] ، وهذا[٩] هو القول ، وذلك أن الشر يؤدي إلى العذاب ، فهو الخلة العسرى ، والخير يؤدي إلى اليسرى والراحة في الجنة ، فهو الخلة اليسرى ، يقول : سنهيئه للشر بأن يجريه على يديه .

قال الفرَّاء : «والعرب تقول : قد يسَّرت غنم فلان ؛ إذا تهيأت للولادة»[١٠] .

وكذلك إذا ولدت وكثر ألبانها ، كأنها يسَّرت الأمر على أصحابها .

---

(١) لم أعثر على مصدر لقوله ، غير أني وجدت نحوه من طريق الضحاك عن ابن عباس في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٤ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٣) انظر : تفسير قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ في هذه السورة .

(٤) لم أعثر أعثر على مصدر لقوله ، وقد ورد بمعنى قوله من طريق الضحاك عن ابن عباس في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٤ .

(٥) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٦) ورد نحوه في معالم التنزيل ٤/ ٤٩٥ ، وزاد المسير ٨/ ٢٦٤ ، وفتح القدير ٥/ ٤٥٢ .

(٧) في (أ) : (للعسرا) .

(٨) جامع البيان ٣٠/ ٢٢٤ .

(٩) في (أ) : (هذا بغير واو) .

(١٠) معاني القرآن ٣/ ٢٧١ .

ثم ذكر أن ما أمسك من[١] ماله عن الإنفاق لا ينفعه ، فقال :

١١. (قوله)[٢] : ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ . أي الذي بخل به عن الخير . ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ ؛ إذا مات .

قال مجاهد[٣] ، ومقاتل ، (وأبو صالح[٤])[٥] : «قال أبو عبيدة[٦] : (تردَّى) وردى ، إذا مات» . قال المُبرِّد : «هو تَفَعَّل من الرَّدى ، وهو الهلاك»[٧] .

وقال ابن عباس[٨] ، وقتادة[٩] : إذا تردَّى في جهنم ؛ أي سقط وهوى ، وذكرنا هذا الحرف عند قوله : ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ [المائدة :٣][١٠] .

١٢. قال الله تعالى : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ .

---

(١) في (أ) : (عن) .

(٢) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٣) ورد بمعناه في تفسير مجاهد ٧٣٤ ، وجامع البيان ٣٠/ ٢٢٥ ، والكشف والبيان ١٣/ ١٠٣أ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٨٩ ، ومعالم التنزيل ٤/ ٤٩٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩١ ، وزاد المسير ٨/ ٢٦٤ ، وتفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٦ ، والدر المنثور ٨/ ٥٣٦ ٥٣٧ منسوباً إلى الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

(٤) لم أعثر على مصدر لقولهم .

(٥) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٦) لم أعثر على مصدر لقوله .

(٧) ورد مختصراً في الكامل ١/ ١٢٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

(٨) الوسيط ٤/ ٥٠٤ .

(٩) ورد في الكشف والبيان ١٣/ ١٠٣ب ، ومعالم التنزيل ٤/ ٤٩٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩١ ، وزاد المسير ٨/ ٢٦٤ ، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٤ ، والدر المنثور ٨/ ٥٣٦ منسوباً إلى عبدالرزاق ، وعبد بن حميد ، وانظر : فتح القدير ٥/ ٤٥٢ ٤٥٣ ، وروح المعاني ٣٠/ ١٥٠ .

(١٠) مما جاء في تفسيرها : المتردية من التردي في اللغة ، التهور في مهواة ، وقيل في قوله : ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ ؛ أي سقط في النار ، وقال أبو زيد : «ردى فلان في القليب تردى ، وتردَّى من الجبل تَرَدِّياً ، فالترديه هي التي يقع من جبل ، أو يطيح في بئر ، أو يسقط من مكان مشرف ، فيموت» . انظر : البسيط ٢/ ٤١أ ، نسخة تشستربتي .

وفي تفسيره ثلاثة أقوال[١] :

قال مقاتل : «يعني البيان»[٢] .

قال أبو إسحاق : «أي إن علينا أن نبيِّن طريق الهدى من طريق الضلال»[٣] .

وهو قول قتادة : «أي على الله البيان : بيان حلاله ، وحرامه ، وطاعته ، ومعصيته»[٤] .

القول الثاني : إن المعنى يقول : مَن سلك الهدى فعلى الله سبيله ، كقوله عز وجل : ﴿ وَعَلَى [٥]ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل :٩] ، يقول : علينا[٦] الهدى ؛ أي إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله ، وإلى ثواب الله وجنته .

---

(١) هذه الأقوال لا تخرج عن مراتب الهدى الأربع ، وهي :
المرتبة الأولى : الهدى العام ، وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها ، وما يقيها ، وهذا أعم مراتبه .
المرتبة الثانية : الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم . . . ، وقد سبق بيانه في الآية ٣ من سورة الإنسان .
المرتبة الثالثة : هي التي قال بها قتادة .
المرتبة الرابعة : تضمنت قول أبي إسحاق .

(٢) لم أعثر على مصدر لقوله ، وقد ورد نحوه غير منسوب في معالم التنزيل ٤/ ٤٩٦ ، والوسيط ٤/ ٥٠٥ .

(٣) ورد في معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٦ بنصه .

(٤) ورد في جامع البيان ٣٠/ ٢٢٦ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٨٩ مختصراً ، ومعالم التنزيل ٤/ ٤٩٦ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٦ ، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٦ مختصراً ، والدر المنثور ٨/ ٥٣٧ منسوباً إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وفتح القدير ٥/ ٤٥٣ ، ومعنى قوله أنه البيان الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، فتبيَّن به حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته . قاله ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٥/ ٢١٠ .

(٥) في (أ) : (فعلى) .

(٦) علمنا .

ذكر[١] ذلك الفرَّاء[٢]، وذكر قولاً آخر، فقال: «ويقال: إن علينا للهدى والإضلال. فترك الإضلال كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وهي تقي[٣] الحر والبرد»[٤].

وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء، قال: «يريد أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي أن يعملوا بطاعتي[٥]. فذكر معنى الإضلال»[٦].

---

(١) في (أ): (وذكر).

(٢) ورد في معاني القرآن ٣/ ٢٧١ بتصرف.

(٣) في (أ): (في).

(٤) هذا القول من الأقوال المحدثة المخالفة التي لم يعرفها السلف، ومعناه: بيدك الخير والشر، والنبي ﷺ يقول: «والخير بيدك، والشر ليس إليك». والله ـ تعالى ـ خالق كل شيء، لا يكون في ملكه إلَّا ما يشاء، والقدر حق، ولكنَّ فَهْم القرآن، وَوَضْع كل شيء موضعه، وبيان حكمة الرب، وعدله مع الإيمان بالقدر؛ هو طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان. انظر: مجموع الفتاوى ١٥/ ٢١١. فالله ـ سبحانه ـ إنما نسب إلى نفسه الخير دون الشر، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران ٢٦]. وأخطأ مَن قال: «المعنى: بيدك الخير والشر»؛ لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ليس في اللفظ ما يدل على إرادة هذا المحذوف، بل ترك ذكره قصداً أو بياناً أنه ليس بمراد.

الثاني: أن الذي بيد الله ـ تعالى ـ نوعان: فضل، وعدل.

الثالث: أن قول النبي ﷺ: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك» كالتفسير للآية، ففرَّق بين الخير والشر، وجعل أحدهما في يدي الرب سبحانه، وقطع إضافة الآخر إليه مع إثبات عموم خلقه لكل شيء. انظر: شفاء العليل ٤٤٧. وهذا القول في الخير والشر ينطبق على ما جاء بالقول علينا الهدى والضلال؛ وذلك لأن الضلال من الشر. فالشر لا يُضاف إلى الرب تعالى؛ لا وصفاً، ولا فعلاً، ولا يتسمَّى باسمه بوجهٍ من الوجوه، وإنما يدخل في مفعولاته بطريق العموم. انظر: شفاء العليل ٤٤٧.

(٥) التفسير الكبير ٣١/ ٢٠٣.

(٦) قد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم، وكتبه المنزلة عليهم، على أنه ـ سبحانه ـ يضل مَن يشاء، ويهدي من يشاء، وأنه مَن يهده الله فلا مُضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال =

١٣. قوله : ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ ؛ يعني الدارين : الدنيا ، والآخرة[١] .

قال الكلبي : «أي ثواب الدنيا والآخرة»[٢] ، (كقوله : ﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء :١٣٤])[٣] .

وهو قول الفرَّاء[٤] .

والمعنى : لنا ملك الدارين ، نعطي منهما مَن نشاء ، فليُطلبا منَّا .

ويجوز أن يكون معنى الإخبار عن كونهما إيجاب التسليم[٥] لأمره ، فإنهما[٦] له ، يفعل فيهما ما يشاء ، فمَن شاء أعطى من الدنيا ، ومَن شاء (حرمه ، ومَن شاء)[٧] أُدخل الجنة ، ومَن شاء أُدخل النار ، لا رادَّ لمشيئته ، ولا ناقض لحكمه .

ولمّا ذكر هذا أخبر عن إبانته طريق الهدى بالإنذار على الكفر بالنار ، فقال :

١٤. ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ . قال مقاتل : «يريد أهل مكة»[٨] .

= بيده لا بيد العبد ، وأن العبد هو الضال أو المهتدي ، فالهداية والإضلال فِعلُه ـ سبحانه ـ وقدره ، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه . انظر : شفاء العليل ١١٧ .

(١) بهذا قال الطبري في جامع البيان ٣٠/ ٢٢٦ ، والسمرقندي في بحر العلوم ٣/ ٤٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٨٩ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من نسخة (أ) .

(٤) ورد في معاني القرآن ٣/ ٢٧١ بلفظ : (لثواب هذه ، وثواب هذه) .

(٥) في (أ) : (السليم) .

(٦) في (أ) : (أنهما) .

(٧) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٨) لم أعثر على مصدر لقوله ، وورد نحوه في معالم التنزيل ٤/ ٤٩٦ .

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ ؛ تتوقد وتتوهج وتتلهب ، يقال : تلظت النار تتلظى تلظياً . ومنه سُمِّيت جهنم لظى[١] ، وقد مَرَّ[٢] ، ثم بيَّن أنها لِمَن هي بقوله :

١٥. ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ ؛ يعني إلَّا مَن كان شقياً في علم الله ، قاله الفرَّاء[٣] .

وقال ابن عباس : «يريد أمية بن خلف ، ونظراءه الذين كذَّبوا محمداً ﷺ والأنبياء قبله»[٤] .

وقال الحسن : «يعني المشرك»[٥] ، ويدل عليه قوله :

١٦. ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾ ؛ أي كذَّب الرسول ، والقرآن[٦] . ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الإيمان[٧] .

فإن قيل : أليس غير المشرك يدخل النار ، وهذه الآية تدل على أنه لا يدخلها إلَّا (المكذب الكافر ؟ والجواب عنه من وجوه :

---

(١) انظر : تهذيب اللغة ١٤/ ٣٩٥ ، والتفسير الكبير ٣١/ ٢٠٣ ، وقال الزَّجَّاج في معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٦ : «(تلظى) : تتوقد ، وتتوهج» .

(٢) في سورة المعارج ، الآية ١٥ .

(٣) معاني القرآن ٣/ ٢٧٢ بنصه .

(٤) التفسير الكبير ٣١/ ٢٠٣ .

(٥) جامع البيان ٣٠/ ٢٢٦ .

(٦) بمعناه قال قتادة : «كذب بكتاب الله ، وتولى عن طاعة الله» . انظر : النكت والعيون ٦/ ٢٩٠ .

(٧) به قال السمرقندي في بحر العلوم ٣/ ٤٨٥ ، وانظر : معالم التنزيل ٤/ ٤٩٦ .

أحدهمـــا : أن هذا ورد في درك مخصوص مـــن أدراك جهنم ؛ لا يحله إلَّا)[١] مَـــن كان بهذه الصفة ، وهي دركات ، ولأهل النـــار منها منازل ، (وهذا قول أبي إسحاق[٢])[٣] .

والثاني : أن هذا على الاختصار بحذف ذكر العصاة من غير المشركين ، بدليل الآي الآخر ، على أن معنى قوله : ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ لا يلزمها في حقيقة اللغة ، يقال : صلى الكافر النار ، إذا لزمها مقاســـياً شدَّتها وحرَّها[٤] ، لعل هذا الأصل مما سبق بيانه[٥] ، ولا يلزم النار خالداً فيها إلَّا المشرك المكذِّب .

١٧. وقوله : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ ؛ أي ســـنبعدها ، ويجعل منهـــا على جانب ، يقال : جنبته الشيء ؛ أي بعدته وتجنبه عنه[٦] .

﴿ٱلْأَتْقَى﴾ ؛ يعنـــي أبا بكـــر -رضي الله عنه- في قول الجميـــع[٧] ، قالوا : يزحزح عن النار .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٢) ورد معنى قوله في معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٦ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٤) انظر : تهذيب اللغة (صلى) ١٢/ ٢٣٨ .

(٥) نحو قوله تعالى : ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار :١٥] .

(٦) انظر : النهاية لابن الأثير ١/ ٣٠٣ ، والمفردات في غريب القرآن ٩٩ .

(٧) نقل الإجماع عـــلى ذلك ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٢ ، وابن الجوزي في زاد المســـير ٨/ ٢٦٥ ، والفخر الرازي في التفســـير الكبير ٣١/ ٢٠٥ ، والشـــوكاني في فتح القديـــر ٥/ ٤٥٥ ، نقل ذلك عن الواحدي ، وابن عاشـــور في التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٩١ ، وقال ابـــن كثير : «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه» . حتى إن بعضهم حكى الإجماع عن المفسرين على ذلك . انظر : تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٦ . قال الخضيري في الإجماع في التفسير ٥٢٨ : «وجميع المفسرين على القول بهذا من غير خلاف بينهم» . انظر : جامع البيان ٣٠/ ٢٢٦ ، ومعاني القرآن للفرَّاء ٣/ ٢٧٣ ، ومعاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٥ . وقد ورد قول شاذ قالت به الرافضة ، هو أنها نزلت في علي بن أبي طالب ، وقد ردَّ قولهم بما هو شـــافٍ كافٍ . انظر : الرازي في التفسير الكبير ٣١/ ٢٠٥ . =

قال مقاتل : «الأتقى المخلص بالتوحيد» .

ثم وصفه فقال :

١٨. قوله : ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ . قال أبو إسحاق : «يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا يطلب بذلك رياءً ولا سمعةً»[(١)] يدل عليه قوله :

١٩. ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ . قال المفسرون[(٢)] : «لمّا اشترى أبو بكر -رضي الله عنه- بلالاً من صاحبه عبدالله بن جدعان ، وكان قد

= قال الخضيري في الإجماع في التفسير ٥٢٨ ، بعد أن ذكر قول الرافضة المخالف لإجماع المفسرين : «ولم أنقل رأيهم ليعترض به على إجماع المفسرين بل ليعرف ويطلع عليه» . وعليه ، فما ذهب إليه الإمام الواحدي من قول بالإجماع صحيح ، ويقرر منهجه في حكايته للإجماع ، فالشاذ نحو هذا لا عبرة له عنده ، والذي ينبغي التنبيه عليه هو أن الآية خاصة بنزولها ، عامة بلفظها . قال ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٦ : «ولا شك أنه داخل فيها يعني أبا بكر وأولى الأُمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، ولكنه مقدم الأُمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف ، وسائر الأوصاف الحميدة» .

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٦ بنصه .

(٢) قال بذلك جمع من المفسرين ، ونسبه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٩٠ إلى الأكثرية من المفسرين ، والروايات عنهم منها ما كان مطولاً ، ومنها ما كان مختصراً ، ولكن جميعها تدور على معنى واحد (على قصة إعتاق أبي بكر لبلال ، ومقولة المشركين فيه ، ونزول الآية في شأنه) . انظر في ذلك ما جاء عن عامر بن عبدالله بن الزبير عن أبيه مختصراً ، وجامع البيان ٣٠/ ٢٢٨ ، والدر المنثور ٨/ ٥٣٨ ، ونسبه السيوطي إلى البزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن عدي ، وابن مردويه ، وابن عساكر . انظر أيضاً : أسباب النزول ٣٩٢ ، تحقيق أيمن صالح ، ولباب النقول ٢٣٠ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد في كتاب التفسير (سورة الليل) ٧/ ١٣٨ : «رواه البزار ، وفيه مصعب بن ثابت ، وثّقه ابن حبان ، وضعّفه جماعة ، وشيخ البزار لم يسمِّه» . وورد بمعناه عن قتادة مختصراً في جامع البيان ٣٠/ ٢٢٨ ، وذكره عطاء عن ابن عباس مطولاً في الكشف والبيان ١٣/ ١٠٤أ ، وزاد المسير ٨/ ٢٦٥ ، وأسباب النزول ٣٩٢ ، تحقيق أيمن صالح ، وورد عن مقاتل مختصراً في بحر العلوم ٣/ ٨٥ ، وورد بمعناه عن عروة بن الزبير في الكشف والبيان ١٣/ ١٠٤أ ، وانظر : معالم التنزيل ٤/ ٤٩٦ ، ولباب النقول ٢٣٠ ، وورد بمعناه عن سعيد بن المسيب ، وابن مسعود . انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٩ ، ولباب التأويل ٤/ ٢٨٥ ، والدر المنثور ٨/ ٥٣٨ . ووردت الرواية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٢ ، والتفسير الكبير ٣١/ ٢٠٦ .

سلح[١] على الأصنام ، فأسلمه مولاه إلى المشركين ليعذبوه بما فعل ، فكانوا يعذبونه في الرمضاء[٢] ، وقد وضعوا على صدره صخرة ، فاشتراه أبوبكر وأعتقه ، فقال المشركون : ما فعل ذلك أبو بكر إلَّا ليد كانت عند بلال ، أراد أن يجزيه بها ، فقال الله تعالى : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾» .

قال ابن عباس : «يريد ما لبلال عند أبي بكر نعمة يجزيه بها»[٣] .

والمعنى : (لم يفعل ذلك مجازاة ليد أُسديت إليه)[٤] ، ولكنه ابتغى بذلك وجه الله ، وهو قوله تعالى :

٢٠ . ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ ؛ (أي إلَّا طلب ثواب الله)[٥] .

قال أبو عبيدة : ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾[٦] استثناء من النعمة ، كما يُستثنى الشيء وليس منه»[٧] .

قال الفرَّاء : «وهذا على اختلاف ما قبل (إلّا) وما بعدها ، والعرب تقول : ما في الدار أحد إلَّا أكلباً وأحمرةً ، وهذا كقوله : ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء :١٥٧] .

---

(١) سلح (من السُّلاح بالضم) : النجو ، وقد سلح كمنع ، وأسلحه ، وناقة سالح : سلحت من البقل ، والنجو : ما يخرج من البطن . انظر : القاموس المحيط (سلح) ١/ ٢٢٩ ، ومختار الصحاح (نجو) ٦٤٨ .

(٢) الرمضاء : الأرض الشديدة الحرارة . انظر : القاموس المحيط (رمض) ٢/ ٣٣٢ .

(٣) لم أعثر على مصدر لقوله .

(٤) ما بين القوسين من قول الزَّجَّاج في معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٦ .

(٥) ما بين القوسين من قول الزَّجَّاج في معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٧ .

(٦) في (أ) : (ابتغاء) ، وغير واضحة في (ع) ، وأثبت ما غلب على ظني صحته ، والله أعلم .

(٧) ورد نحوه في مجاز القرآن ٢/ ٣٠ .

كقول[١] النابغة :

. . . . وما بالرَّبعِ من أحدِ
إلَّا الأوارِيَّ[٢] . . . .

وهي لغة أهل الحجاز»[٣] .

وذكر الفرَّاء وجهاً آخرَ ، وهـو : «أن يضمر الإنفاق على تقدير : ما ينفق إلَّا ابتغاء وجه ربـه الأعلى ، وهذا كقولـه : ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة :٢٧٢]»[٤] ، وقد مَرَّ .

---

(١) في (ع) : (وكقول) .

(٢) لم يذكر الفرَّاء قول النابغة ، وإنما استَشهد بقول عامر بن ثابت جران العود :

وبَـلْـدةٍ لَـيـس بـهَـا أَنِـيْـسُ إِلَّا اليَعـافِـيـرُ وإِلَّا العِـيـسُ

واستَشهد ببيت النابغة عند تفسيره الآية ١٤ من سورة النساء ، والآية ٩٨ من سورة يونس . انظر : معاني القرآن ١/ ٢٨٨ ، ٤٨٠ . والبيت من مطلع قصيدة يقول فيها :

يـا دارَ مَـيَّـةَ بـالـعـلـيـاءِ فـالـسَّـنَـدِ أقـوتْ وطالَ عـلـيها سَـالفُ الأبَدِ

ثم يقول :

وَقَـفْـتُ فـيـهـا أصَـيْـلانـاً أسـائِـلها عَـيَّتْ جـواباً ومـا بـالـرَّبْعِ مـنْ أحَـدِ
إلَّا الْأَوَارِيَّ لأيـاً مـا أُبَـيِّـنُـهَـا والـنُـؤيُ كـالـحَـوضِ بـالـمظْلُومَةِ الجَـلَـدِ

انظر : ديوانه ٣٠ ، طبعة المؤسسة العربية ، وانظر أيضاً : الأصول في النحو لابن السراج ١/ ٢٩٢ . والشاهد : (الأواري) استثناه من (الناس) على البدل ، وأصله من الاستثناء المنقطع ، فأوجب نصبه على لغة الحجاز ، وقد جمع فيها ثلاثة أحرف للنفي : إن ، ولا ، وما . ومعنى البيت : وصف أنه مَرَّ بالدار عشياً قصيراً ، فوقف فيها وسألها عن أهلها . أصيلان : تصغير أصيل ، وهو بالعشي . وعيت جواباً : أعيت بالجواب ، فلم تجبني . والربع : منزل القوم . والأواري : محابس الخيل . والنؤي : حاجز من تراب يوضع فوق الخباء لئلا يدخل السيل . والمظلومة : الأرض التي لم تمطر فجاءها السيل فملأها . والجَلَد : الأرض الصلبة . واللأى : البطء . انظر : شرح أبيات معاني القرآن ١١٧ ش ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٣) معاني القرآن ٣/ ٢٧٣ بتصرف .

(٤) معاني القرآن ٣/ ٢٧٣ بتصرف .

ومعنى ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ : الأجل بصفاته التي لا يوارى فيها ، فهو الأقدر الأغلب الأظهر بالحجة والقوة[١] .

(١) هذا قصر من الواحدي للآية على بعض معانيها ، وما ذكره حق ، ولكنه أغفل ـ بناءً على مذهبه الأشعري ـ ما دلت عليه الآية من إثبات العلو لله تعالى ؛ أي علو الذات ، مثلما دلت النصوص المتواترة على ذلك ، فهو ـ تعالى ـ فوق خلقه على العرش استوى . والذي يريد الإيمان بأسماء الله وصفاته لتسلم عقيدته يلزمه أمران : أحدهما إثبات تلك الصفات ؛ لأنها وردت في الكتاب والسُّنَّة ، فقد صار مصدرهما الوحي ؛ لأن هذا الإثبات لها هو لازم الإيمان . والثاني هو الاعتقاد الجازم بأن الله ـ تعالى ـ ليس له شبيه ولا مثيل في ما يتصف به من تلك الصفات ، وهذا أيضاً تحقيق لقول الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، وإن الانطلاق من هاتين القاعدتين في باب الأسماء والصفات هو المسلك الصحيح ، والمنهج السليم ، وبه يتحقق الاتباع الكامل ، والانقياد الحق ، والاستجابة الواعية لما قاله الله تعالى ، أو نَطَق به النبي ﷺ ، وإن أيَّ مساس بهاتين القاعدتين يوصل إلى انحراف خطير في فهم أخطر قضية من قضايا الاعتقاد في باب أسماء الله وصفاته . انظر : علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين لرضا نعسان ١١ . وعليه ، فتفسير الأعلى من هذه السورة على ضوء الكتاب والسُّنَّة هو على النحو الآتي :

قال تعالى : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة :٢٥٥] ، وقال سبحانه : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى :١] ، وقال عز وجل : ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد :٩] ، وذلك دال على أن معاني العلو جميعها ثابتة لله من كل وجه ، فله علو الذات ، فإنه فوق المخلوقات ، وعلى العرش استوى ؛ أي علا وارتفع ، وله علو القدر ، وهو علو صفاته وعظمتها ، فلا يماثله صفة مخلوق ؛ بل لا يَقْدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته ، قال تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ ، وبذلك يُعلم أنه ليس كمثله شيء في نعوته كلها ، وله علو القهر فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم ؛ وذلك لكمال اقتداره ، ونفوذ مشيئه ، وشدة افتقار المخلوقات كلها له من كل وجه . انظر : شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسُّنَّة ٧٨-٨٠ ، وانظر أيضاً : الحق الواضح ٢٦ ، وشرح القصيدة النونية للهراس ٢/ ٦٨ .

وتأسيساً على ما سبق شرحه ، وبالمقابلة مع قول الإمام الواحدي ، يتبيَّن أن الواحدي أثبت علو القدر فقط ، والذي ينبغي له إثبات العلو بأنواعه الثلاثة ، والله أعلم .

ثم وعد أبا بكر أن يرضيه في الآخرة بثوابه ، فقال :

٢١. قوله تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ . قال ابن عباس : «يعطيه الله في الجنة حتى يرضى»[(١)] . وقال مقاتل : «يرضى بثواب الله في الآخرة»[(٢)] . وقال أبو إسحاق : «أي سيدخل الجنة كما قال : ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر :٢٨]»[(٣)] .

* * *

(١) لم أعثر على مصدر لقوله ، وقد ورد نحوه غير منسوب في معالم التنزيل ٤/ ٤٩٧ ، ولباب التأويل ٤/ ٣٨٥ .

(٢) لم أعثر على مصدر لقوله .

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٣٧ .